صفحة من تاريخ العلاقات

بين غليالم الثانى النورماندى وصلاح الدين الأيوبى

(٢٧ ذى الحجة ٥٦٩ هـ — ٢٨ يولية ١١٧٤ م)

لجناب الدكتور أومبرتو ريتزيتانو Prof. Umberto Rizzitano

أستاذ بجامعة روما والأستاذ الزائر بجامعة فؤاد الأول

حضرات أصحاب العزة مدير الجامعة وعميد كلية الآداب

حضرات الأساتذة الأفاضل والطلبة الأعزاء

ربما كان القليل من حضرات السادة الذين شرفونى بحضورهم يقدرون الحرج الذى يقع فيه أى مستشرق يجرؤ على إلقاء محاضرة بلغة الضاد على أهلها لاسيما إذا كانوا من صفوة الأساتذة والمثقفين. ومن المعلوم أن المستشرقين إنما يتلقون دروسهم عادة على نصوص مكتوبة بالنثر الفنى القديم الذى يختلف كثيراً أو قليلا عن النثر المعاصر وإذا كان أحد هؤلاء المستشرقين قد أتيح له أن يعيش مدة فى بلد من البلاد العربية فلن يقدر إلا على التكلم باللغة العامية المستعملة فى ذلك البلد، ومن المعروف أنه لم تجر العادة على أن يلقى إنسان محاضرة من المحاضرات باللغة العامية مهما كان شأنها ولهذا فإن المستشرق إذا تكلم فانما يتكلم بلغة ليست باللغة العامية وليست باللغة الفصحى المعاصرة التى تستعملها الصحافة اليومية والكتاب العرب المعاصرون وإنما يستعمل لغة عجيبة نادرة المثال لها تراكيب ليست دارجة الاستعمال ويختار لها ألفاظاً ليست دائماً من الألفاظ الشائعة وهى تلك اللغة التى عرفها عن أمثال الأصفهانى

فى كتاب الأغانى أو الحريرى فى مقاماته المعروفة إلى غـــير ذلك، ويمكن القول بأن المسئولية فى ذلك تقع على كاهل الكتاب القدماء. وكما عبر أستاذنا الجليل أحمد أمين بك فى بعض مقالاته عن جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى[1] فانه يمكن أن اقول إن هناك جناية أخرى (لاتقل خطراً عن الجناية التى أشار إليها الأستاذ الفاضل) فى استطاعتى أن أطلق عليها عبارة: جناية النـــثر الفنى العربى على المستشرقين عند مايتحدثون باللغة الفصحى. وإنى لأذكر أن زميلا لى من المستعربين قال لى فى العام الماضى فى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى مدينة باريس على سبيل الفكاهة (إننا نحن المستشرقين الأوروبيين قد أوجدنا لحادثة لغة عربية أخرى من نسج اختراعنا وهى لغة صحيحة من الناحية اللغوية وتامة من الناحية النحوية ولكنها بعيدة كل البعد عن اللغة العربية الحيـة وهى تلك اللغة التى نود من صميم أفئدتنا أن نعرفها حق المعرفة لكى نستطيع إلقاء محاضرات او كتابة مقالات بها.

ولقد كان من حسن حظى أن أكون من مواليد هذا البلد الكريم المضياف وأن أرضع اللغة العربية مع لبن الأمومة فى وقت واحد ولهـــذا فانى بفضل هذه الميزة واعتماداً على عظيم تسامحكم وعفوكم أرجو ألا أقع فى تلك الأخطاء التى سبق أن أشرت إليهـا وأرجو أن أكون قد وفقت إلى استعمال لغة عربية تصل إلى أفهام السامعين

ولى كلمة أيضاً أرجو أن تسمحوا لى بان اقولها قبل ان ادخل فى الموضوع الذى سأتحدث عنه وهى كلمة اريد ان اعرب بها عن اعترافى بجميل حضرات عميد واساتذة كلية الآداب بجامعه فاروق الذين تفضلوا بان شرفونى بالسماح لى بالقـــاء محاضرة فى هذه المدينة الخالدة التى اعتبرها مهدى الأول.

وبصفتى من مواليد هذه المدينة الكبيرة وكذلك كونى من اصل شقلى أجدانه علىّ واجب مزدوج وهو واجب المساعدة بقـــدر الإمكان على التقريب بين بلدينا أو بالأحرى بين شعبين إذا بحثنا بحثاً جدياً فى تاريخهما لوجدنا انهما قد تقابلا واتصلا عدة مرات، وإذا بحثنا فى اخلاق وعادات كل منهما لوجدنا بينهما مميزات متشابهة ومشتركة

(١) راجع مجلة «الثقافة» سنة ١٩٣٩ عدد ٩٩ و ٢١ و ٢٢ و ٣٠ و ٣٧.

يحتمل كثيراً أن يكون سببها وجود كليهما على شواطىء البحر الأبيض المتوسط(١) الذى ليس هو فقط بحراً « متوسطاً » كما يدل على ذلك اسمـــه ، ولكنه بحر شامل جامع لكثير من الأمم التى تقطن هذه الأقطار المحيطة به وهو وسيلتهم الوحيدة فى الاتصال والتبادل فى مختلف نواحى الحياة ، ولقد كانت ، وما زالت ، للبحار فى التاريخ أهمية كبرى وقد يكون من المفيد وضع تاريخ لكل بحر كما وضع تاريخ لكل بر فنرى أية مساعدة ومعاونة قدمتها هـــذه البحار للبلاد المطلة عليها فى التبادل الحضارى بمختلف نواحيه .

وفى الحق إنه كان للبحر الأبيض المتوسط فى فترة من فترات التاريخ فضل الاتصال بين برين هما من ناحية أرض صقلية وسواحل إيطاليا الجنوبية ومن الناحية الأخرى بلاد أفريقيا الشمالية . ومن الممكن أن يعترض معترض بقوله : إن هذه الاتصالات لم تكن مقابلات ودية بل كانت مصادمات حربية ، وهذا حق لا ينكر ، إذ وقعت فعلا حروب وغزوات وإغارات من كل ناحية من هاتين الناحيتين على الأخرى ومع ذلك يجب ألا ننسى أن الشعوب لا تتعارف فقط فى ظلال العلاقات السلمية ولكنها قد تتعارف أيضاً ويتصل بعضها ببعض من خلال الحروب التى تقرب بين شعب وآخر ، وأظن أنكم قد سمعـــتم ذلك المثل العربى اللطيف الذى له ما يماثله فى اللغة الإيطالية (ليست هناك محبة بغير عداوة) ومثل ذلك أنه بالرغم من أن روجار الصقلى قد اعتبره مسلمـــو الجزيرة مغتصب الحكم منهم وأنه طردهم من بلاد كانوا قد فتحوها من نحو قرنين من الزمان فقد ازدهرت فى أيام حكمه المدنية الاسلامية فى صقلية أيمـــا ازدهار ونشطت نشاطاً كبيراً حركة علمية وافرة فى ميادين الثقافة والشعر والفلك والجغرافيا والميادىء السياسية ، وكل هذا كان بفضل المسلمين الذين كانوا بطبيعة الحال أعداء ألداء للنورمانديين .

ومهما يكن من أمر فلندخل فى صميم الموضوع الذى جئت للتحدث فيه وذلك حرصاً منا على وقت سامعينا الافاضل ولننتقل الى الحديث عن موقف جزيرة صقلية بعد موت روجار الثانى فى ١١٥٤ م — ذلك الملك الذى كان فقده خسارة كبرى

(١) راجع ما أشار اليه فى هذا الموضوع الدكتور طه حسين بك فى مقدمة كتابه (مستقبل الثقافة فى مصر) مطبعة المعارف ١٩٣٩.

للجزيرة لأنه كان بالنسبة لصقلية بمثابة الاسمنت من البناء لا يمكن البقاء بدونه . وقد حدث أن سقط البناء الشامخ الذى أقامه ذلك الملك العظيم الذى خلع عليه الادريسى أوصافاً عظيمة فى كتابه المعروف (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) اذ سرعان ما سارت بعد موته فى داخل الجزيرة حركات التمرد من جانب خصومه فقد حدث هذا فى عهد غليالم الاول حينما كانت الفرصة سانحة لخلق الاضطراب وتكدير عيش الملك الجديد المعروف باسم جوليالم الشق ولم يكن هذا فحسب بل إن الموقف فى خارج الجزيرة لم يكن موقفاً طيباً فقد كان البابا ينتظر أحسن الفرص لاجتياح ايطاليا الجنوبية واخضاعها . وكذلك كان فردريك باربا روسا (ذو اللحية الحمراء) يصبو الى تلك هذه الاقاليم وللوصول الى هذا الغرض استعان بقوات بيزا وجنوا البحرية ، ولكنه لم يصل الى بغيته ومن الجهة الاخرى كان البيزنطيون يعدون العدة لمهاجمة أقليم بوليا الواقع فى ايطاليا الجنوبية وكذلك كان الموحدون اثناء ذلك قد اشتد ساعدهم وتطلعوا الى استعادة ما كان قد تملكه روجار الاول واخوه روجار الثانى من بلاد افريقيا . وإننا إذا القينا نظرة على خريطة البحر الابيض المتوسط لأمكننا ان نتصور موقف جزيرة صقلية وان نشعر بان الملك النورماندى كان فى غاية الحرج والصعوبة لانها اصبحت اذ ذاك منعزلة ومحاطة بأعداء من كل الجهات وقد أدرك غليالم الاول حقيقة الموقف وهذا ما نفهمه بسهولة من أنه فى بحر الاثنى عشرة سنة التى حكمها بصقلية لم يحاول القيام بحركات خارج الجزيرة إلا مرات قليلة جداً واذا ما استثنينا بعض غزوات بسيطة قام بها بعد موت روجار مباشرة كان القصد منها مهاجمة تنيس ودمياط ورشيد والاسكندرية ولكنها على كل حال كانت غزوات بسيطة واغارات ليس ذات اهمية ولذلك لم يعلق عليها احد من المؤرخين المعاصرين لها او الذين جاؤا بعدها ثم إنه كانت قد بدأت تعلو فى البحر الابيض المتوسط ولا سيما فى الجانب الغربى منه وعلى الشواطىء الافريقية صيحة الثورة على المسيحيين، تلك الصيحة التى كان اول من اطلقها فى تلك الفترة عمر بن ابى الحسن الحسين الفريانى الذى يمكننا ان نعتبره محرر مدينة صفاقس وعلى اثره ثارت على الحكام الجدد مدينة جربة وعلى اثرهما طرابلس الغرب وقابس وبعد ذلك المهدية التى خرجت من يد المسيحيين فى سنة ١١٦٠ م بعد اثنتى عشرة سنة من احتلال النورمانديين لها .

وعندما توفى والد غليالم الاول فى سنة ١١٦٦ لم يكن ابنه قد تجاوز الثالثة عشرة ولذلك عين مجلس وصاية لادارة البلاد استمر فى مباشرة عمله خمس سنوات كاملة بدأ بعدها غليالم الثانى ـ ولم يزل فى سن الشباب ـ حياته كملك وكان يعيش فى أثناء هذه الفترة فى قصوره العديدة القائمة فى بالرمو بين النساء والجوارى عيشة الملوك الشرقيين، وبهذه المناسبة يحسن ان نقرأ ذلك الوصف الشائق الذى تركه لنا ابن جبير فى « رحلة الكنانى » إذ يقول : « ... وهو كثير الاتخاذ للفتيان والجوارى وليس فى الملوك النصارى أترف فى الملبث ولا أنعم ولا أرفه منه وهو يتشبه فى الانغماس فى نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أبهة الملك وإظهار زينته بملوك المسلمين ... » (١)

ومع ذلك فان التاريخ عرفه باسم غليالم الصالح بينما كان يطلق على ابيه اسم غليالم الشقى، ومن المحتمل كثيرا أن لايكون الاب شقياً والابن صالحاً الى درجة يستحقان معها هذين اللقبين ولكن هذا يدلنا على أن كل شىء فى هذه الدنيا لايحكم عليه حكماً صحيحاً وغالباً مايخلع التاريخ على مشاهير الرجال أوصافا لايستحقونها وينسب لهم اعمالا لم يعملوها .

كان أمام غليالم الصالح فى أثناء حكمه أن يختار أحد الطريقين : إما الطريق الذى كان يسير عليه جده وجد أبيه روجار الاول وروجار الثانى اللذين كرّسا كل جهودهما لايجاد فتوحات خارج الجزيرة (٢) أو أن يسير سير أبيه غليالم الاول الذى بسبب حزمه لم يحاول التوسع فى خارج الجزيرة واقتصر على العمل على تحسين الاحوال فى صقلية فى جميع فروع الحياة، وامام هذين السبيلين رأى غليالم الصالح اختيار الطريق الأول وهو طريق التوسع والفتح فى السواحل الافريقية التى كان الجانب الغربى منها مسرحا لنشاط الصليبيين، وبهذه المناسبة يقول آمارى بحق فى كتابه « تاريخ مسلمى صقلية » الذى نود ان نراه منقولا الى اللغة العربية فى اقرب وقت « إن غليالم قد

---

(١) المكتبة العربية الصقلية ، طبعة ١٨٥٧ — ص ٨٣ .

(٢) راجع مقالى فى عدد يونيو ١٩٤٩ Bulletin of Faculty of Arts لجامعة فؤاد الاول .

تسبب فى فقد أرواح وإضاعة اموال تزيد كثيراً عما استهلكه اجـــداده فى فتوحاتهم » (١)

والان وقد بحثنا الموقف فى جزيرة صقلية فلننتقل الى وصف الحالة فى مصر فى ذلك الحين لكى نميط اللثام عن حقيقة المشروع الذى قام به غليالم الثانى لمهاجمة الاسكندرية فى ذى الحجة سنة ٥٦٩ هـ (الموافق ٢٨ يوليه سنة ١١٧٤م) لنستعيد ذكر الحوادث والرجال الذين تميزت بهم هذه الفترة التى لم يكن موقف صلاح الدين الايوبى فيها أفضل من موقف غليالم الثانى فى صقلية . وذلك لأن السلطان الايوبى على مثال الملك النورماندى كان محاطاً بعدد من الاعداء سواء فى داخل البلاد أو فى خارجها وقد تحدث هو نفسه عنهم فى رسالة له بعث بها إلى ديوان الخلافة فى بغداد وفى هذه الرسالة التى نقرؤها فى « كتاب الروضتين » لأبى شامة المقدسى قال السلطان الايوبى :

« ... فاما الاعداء المحدقون بهذه البلاد والكفار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام والعزائم الشداد فنهم صاحب قسطنطينية وهو الطاغية الاكبر والجالوت الاكفر وصاحب المملكة التى أكلت على الدهر وشربت وقاسم النصرانية الذى حكمت دولته على ممالكها وغلبت ... ومن هؤلاء الكفار هذا صاحب صقلية كان حين علم بأن صاحب الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا فى نوبة دمياط فظنها وقسراوهزما وكسرا أراد ان يظهر قوته المستقلة فعمر أسطولا استوعب فيه ماله وزمانه فله الآن خمس سنين يكثر عدته وينتخب عدته إلى ان وصل منها فى السنة الحاليـــة إلى الاسكندرية ... » (٢) أما فى داخل البلاد فكان صلاح الدين الايوبى يعمل على إعادة الشعب المصرى الى سيطرة الخلفاء العباسيين الذين كانت قد خرجت مصر من أيديهم من نحو قرنين وبدأ صلاح الدين يظهر لأهالى الديار المصرية وغير المصرية كبطل من كبار الابطال ولكن هناك من كان يعمل على إعادة الفاطميين وقد حدث فى ذلك الوقت أيضاً ماسبق ان حدث قبل نحو قرن من الزمان بفعل الشاعر المؤيد فى الدين هبة الله

---

(١) تاريخ مسلمى صقلية طبعة ١٩٣٩/٩٣٣ — ج ٣ ص ٥٤٠ ـ ٥٤٣ حيث آمارى يبدى رأيه فيما يختص بسلوك غليالم الثانى .

(٢) المكتبة العربية الصقلية — ص ٣٣٥ — ٣٣٦ .

الشيرازى (الذى نشر ديوانه أخيراً الاستاذ الجليل محمد كامل حسين) وقام فى أيام صلاح الدين بالحركة نفسها شاعر آخر أجنبي عن مصر كان من أهالى اليمن وهذا الشاعر الذى اخذ بيده زمام الحركة هو عمارة بن ابى الحسن ذلك الشيعى اليمنى المتطرف الذى حدثنا عنه حديثا مستفيضاً المستشرق Derenbourg .

وقد بذل المتآمرون على صلاح الدين كل جهودهم لكى يصلوا إلى غايتهم ولم يترددوا فى الاستعانة بملكى صقلية والقدس المسيحيين . وفى نفس الوقت عملوا على إبعاد تورن شاه شقيق صلاح الدين من مصر وحسنوا له أن يتولى قيادة الحملة على بلاد اليمن وكان ممن يشجع على هذه الحملة الشاعر عمارة نفسه . ومع ذلك فان هذه الحملة لم تكن عديمة الفائدة إذ أن الأيوبيين اكتسبوا بها فتوحات عظيمة . وكان المتآمرون فى داخل البلاد على صلاح الدين قد وضعوا برنامجاً يتلخص فيما يأتى :

حينما يغيب صلاح الدين عن القاهرة ليرد المسيحيين الذين ينزلون من سفنهم الى الأراضى المصرية يقوم المتآمرون باثارة الشعب ضده وخلعه وإعادة الملوك الفاطميين . أما إذا فضل صلاح الدين البقاء فى القاهرة ورأى إرسال جنوده لمحاربة العدو فعندئذ يسهل على المتآمرين القبض عليه .

ولكن صلاح الدين كان رجلا ذكياً ماهراً وكان الحظ يساعده . فمن جهة تقدم اليه زين الدين على بن ناجه أحد الوعاظ الذى عرف بالمؤامرة وتظاهر بالاشتراك فيها وبقى بين المتآمرين لينقل أخبارهم إلى صلاح الدين ومن جهة أخرى استعان صلاح الدين بمسيحى كان يثق به كل الثقة واستطاع هذا أن يقدم له أسماء المتآمرين . وهكذا نجد مسلما ومسيحى من المحتمل كثيراً أن يكونا قد عملا بارشاد ورعاية « القاضى الفاضل » الذى نسب اليه « أبو الفداء » فضل كشف هذه المؤامرة وهذا رغم اختلاف ديانتهما . إذ كان أحدهما من المسلمين والآخر من المسيحيين وكان كل من هؤلاء وهؤلاء يتقاتلون براً وبحراً ولكنهم

كانوا فى كثير من الأحوال سواء فى صقلية أو أفريقيا أو مصر أو الأندلس يتعاونون ويتآمرون ويعملون جنباً إلى جنب وكان تعاونهما فى هذه المرة لمعاونة صلاح الدين .

اكتشفت عندئذ المؤامرة وحكم على مدبريها بالموت كما روى ذلك ابن الأثير وكان يبدو بعد موت هؤلاء المتآمرين أن كل شىء قد انتهى . وبالفعل رأى ملك القدس الانسحاب والعدول عن مهاجمة الاسكندرية . ولكن ملك صقلية غليالم الصالح رأى لاستمرار فى حملته . وفى اليوم السابع والعشرين من ذى الحجة سنة ٥٦٩ هـ (الموافق لثامن والعشرين من يولية سنة ١١٧٤ م) ظهر الأسطول الصقلى أمام شواطىء الاسكندرية وكان يتألف من عدد ضخم من السفن وهذا ما أجمع عليه كل المؤرخين مع خلاف بسيط فى تحديد التاريخ [1] وفى عدد سفن الأسطول ولكن هذا الخلاف ليست له أهمية كبيرة إذ أن الذى يهمنا معرفته هو أن غليالم رغم فشل المؤامرة ورغم القبض على المتآمرين قام بمشروعه مدفوعاً برغبته فى الحصول على المجد والثروة إذ أن المتآمرين كانوا قد زينوا له المشروع ووعدوه بالحصول على أموال كثيرة وأراض واسعة .

وفى الوقت نفسه يخشى كل الدهشة السلطان صلاح الدين الذى كان غاية فى الحرص واليقظة من ظهور أسطول صقلية أن المؤامرة قد فشلت وهذا يجعلنا نعتقد أن الملك الأيوبى لم يكن يخشى ملك صقلية وكان واثقاً من أن فى استطاعته القاؤه فى البحر كما حدث فعلا

وبعد سنين قلائل نجد أن نفوذ الأيوبيين قد انبسط على مسلمى الجزيرة إذ نقرأ فى كتاب رحلة ابن جبير الذى زار صقلية سنة ٥٧٨ هـ (الموافق ١١٨٣م) أن خطبة الجمعة كان يدعى فيها فى مساجد مدينة بالرمو للخليفة العباسى .[2]

---

(١) راجع فى هذا الموضوع « تاريخ مسلمى صقلية » — ج ٣ ص ٥٢٣ الحاشية .

(٢) المكتبة العربية الصقلية — ص ٩٢ .

وإنى أرى أنه لا حاجة الى تفاصيل الحوادث الخاصة بمهاجمة الاسكندرية لأنه من السهل الاطلاع عليها فى كافة الكتب التاريخية التى وضعها المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين أمثال عماد الدين الاصفهانى الذى كان وزيراً لنور الدين وكاتبا خاصا للملك الأيوبى . وأننا إذا ماضربنا صفحاً عن السفسطائية التى اعتاد المؤرخون أن يحيطوا بها كتاباتهم (ولتكوين فكرة عن هذه السفسطائية يكفى أن نقرأ بعض صفحات من كتاب « الفتح القسى فى الفتح القدسى ») وإذا استطعنا أن نستبعد المبالغات التى نجد الكتّاب قد انزلقوا فيها من أمثال أبى شامة المقدسى وعماد الدين الاصفهانى السالف الذكر وابن شداد وابن الأثير حتى المتأخرين منهم لوجدناهم جميعاً متفقين فى سرد تلك الحوادث .

وهناك وثائق أخرى تساعدنا على إيضاح بعض النقاط الغامضة وهى تلك الرسائل التى كتبها القاضى الفاضل أو صلاح الدين نفسه الذى كان يراسل مرة أميراً من أمراء الشام ومرة أخرى خليفة بغداد لأطلاعهما على مجرى الحوادث[1]

ومهما يكن الحال فان أهل الاسكندرية قد أبدوا عند ظهور السفن الصقلية رباطة جأش وشجاعة نادرة المثال ودافعوا عن مدينتهم دفاعاً مجيداً حتى قبل أن يعرفوا بوصول الامدادات اليهم من القاهرة ، وأجمل ما نقرأ فى تاريخ ابن الأثير أن الاسكندريين بمجرد أن عرفوا أن صلاح الدين قد وصل إليهم بجيوشه ازدادوا شدة وشجاعة « وزال ما بهم من تعب وألم الجراح وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله » . [2]

ترى ماذا كان مسلك الأفرنج ؟

هذا ما يصوره لنا أيضاً المؤرخ نفسه إذ يقول ـ سمع الأفرنج بقرب صلاح الدين فى عساكره فسقط فى أيديهم وازدادوا تعباً وفتوراً [3]

---

(١) راجع « تاريخ مسلمى صقلية » — ج ٣ ص ٥٢١ — ٥٢٢ وحواشيها .
(٢) ابن الاثير فى المكتبة العربية الصقلية ص — ٣١١ .
(٣) « « « « ص — ٣١٢

من هذا يتضح أن سيرة صلاح الدين أصبحت أشبه بالأساطير ودخلت فى عدادها بعد الفترة التى عاش فيها . فمن هذه اللحظة كانت حركاته حركات بطل من الأبطال يثير الحماسة فى صفوف جيوشه ، ويلقى الرعب فى قلوب خصومه واعدائه . وبقية الحوادث معلوم أمرها اذ اضطرت السفن المغيرة بعد ثلاثة ايام من قتال عنيف الى العودة من حيث أتت . وأن موجز هذه الحوادث التى يمكن اعتبارها صفحة من صفحات المجد التى سطرها صلاح الدين فى مصر يدلنا على أمرين :

أولا — نصيب الشعراء فى تدبير المؤامرات والحركات التى كان الغرض منها إحداث الانقلابات السياسية .

ثانياً — مقدار الدعاية الفاطمية العظيمة التى كانت تنتشر فى مصر وكيف كان الفاطميون يستعملون الوسائل فى سبيل انتصار قضيتهم ولو اضطرهم الأمر إلى طلب مساعدة المسيحيين دون تقدير لما يجر ذلك من الأخطار .

وان محاضرتى هذه تكون عديمة الفائدة اذا لم أشر فيها قبل ان أختمها الى أمرين لهما عندى أهمية خاصة ولابد أن يهتم بهما جميع الذين يشرفون هذه القاعة .

الامر الأول هو انى أريد ان أنبه حضرات الحاضرين لكى ينبهوهم بدورهم ايضاً طلبتهم وزملاءهم إلى أهمية العناية بدراسة تاريخ مسلمى صقلية التى فتح لنا المؤرخ آمارى الطريق اليها . ويجب ألا تكون هذه الدراسة مقصورة على الجانب التاريخى المحض الذى نعرفه جيد المعرفة وخاصة بعد نشر تلك النصوص التى احتواها المجلدان الضخمان المعروفان باسم « الذكرى المئوية لميكيلى آمارى » بل يجب أن تتعدى ذلك إلى الاهتمام بتاريخ الحركة الأدبية والعلمية والثقافية والادارية التى نمت وترعرعت فى الجزيرة فى اثناء الوقت

الطويل الذى عاش فيه المسلمون فى الجزيرة حتى بعد الفتح النورماندى ، وانى أنتهز هذه الفرصة للاشارة الى امر هام وهو أنه إلى اليوم لاتزال دواوين الشعراء : ابن حمديس وعلى البلنوبى (١) وابن قلاقس وغيرهم من امثال ابن بشرون وعبد الرحمن الاطرابنشى وعبد الرحمن بن محمد بن عمر الذين عاشوا فى البلاط الصقلى او الذين زاروا الجزيرة . تكاد تكون مجهولة . وان كل من وصلت الى يديه دواوين الشعراء الثلاثة الاولين او بعض قصائد الآخرين وأبياتهم المشتتة فى بعض المؤلفات وبصفة خاصة فى « الخريدة » لعماد الدين الاصفهانى يمكنهم بكل سهولة ان يلاحظوا أن معرفة مثل هذه الثروة الشعرية أمر ضرورى لإكمال او تصحيح بعض الروايات التاريخية الخاصة بغزوات مسلمى صقليه وفتوحاتهم واننا بعد ان نرجع الى هذه الدواوين والاشعار يمكننا ان نقول اننا قد قمنا بعمل مجيد لتوضيح كل مظاهر الفتح الاسلامى لجزيرة صقلية .

والأمر الثانى الذى ارغب الاشارة اليه — بصفة خاصة — والذى استطيع الانتهاء من محاضرتى بعد الفراغ منه هو ان ادعو الطلبة الى عدم إهمال ذلك العنصر الهام الذى هو جزء لايتجزأ من التاريخ ، والمعروف باسم Epigrephy أى الكتابات المنقوشة .

والنقوش العربية لاتزال آثارها باقية فى كافة البلاد التى فتحها المسلمون ، وهى نقوش مكتوبة باللغة العربية التى يقول عنها بحق Van Berchem فى مؤلفه القيم

"Matériaux pour un Corpus inscriptionum arabicarum"

« إنها لم تعد بعد لغة عامية لقبيلة من القبائل بل إنها أصبحت لغة عالمية وضعتها وظيفتها التاريخية من بعد وفاة النبى محمد إلى أيامنا هذه فى الصف الأول بين طرق التعبير التى عرفتها الانسانية .

وهذا هو السبب الذى من أجله توجد نقوش عربية فى مناطق تمتد من المحيط

(١) وقد أعد المأسوف عليه المستشرق C. Schiaparelli نشر هذا الديوان وترجمته الى الايطالية ولم يطبعا بعد .

الهندى حتى سواحل المحيط الأطلسى ومن داخل البلاد المصرية حتى بلاد آسيا الوسطى، وحتى بلاد الصين نفسها لم تخل من هذه النقوش العربية . » (١)

وان النقوش كما قال حضرة عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول عند ما تحدث أخيراً عن (الآثار فى خدمة التاريخ) لتؤدى خدمة نفيسة لفقه اللغة وللتاريخ قبل كل شىء وهذه النقوش تلقى ضوءاً فى أغلب الأحيان على النظم الدينية والسياسية والادارية والقضائية والعسكرية والتجارية وعلى تاريخ الأزياء والآراء وعلى التثبت من أسماء الأعلام والألقاب الرسمية التى أوجدها الحكام . وإنه ولو أن نصيب النقوش العربية فى هذه الميادين أقل من نصيب النقوش اليونانية واللاتينية إلا أن قيمتها لا تنكر . وإلى جانب الاهتمام بالنقوش يجب الاهتمام بدراسة علم المسكوكات والوثائق وعلى الأخص ما كان منها متصلا بالعلاقات بين أوروبا وبلاد الشرق العربى عامة وخاصة بين بيزا وفلورنسه وجنوه وصقلية وغيرها مع مصر وتونس وبلاد الشام من القرن الثانى عشر إلى القرن السادس عشر .

وقد أدرك ما لهذه الوثائق من قيمة جماعة من الباحثين أمثال Van Berchem و Cusa و Nallino و Sauvaire و Lavoix و Amari وغيرهم الذين تركوا بين أيدينا نشرات وتعليقات لها قيمتها العلمية العظيمة التى يجب ألا نتجاهلها والتى ندعو الشبيبة المصرية إلى دراستها ومعرفتها حق المعرفة .

هذا هو أهم ما كان على أن أقوله وإنى لأراه أهم بكثير من تفاصيل الحوادث التاريخية التى أشرت إليها فيما سبق . . . وإنى لأرجو فى الختام الا اكون قد أملت حضراتكم بحديثى المطول وبلغتى التى ربما تكون قد جعلتكم تشعرون بالاشفاق على لغتكم العربية الجميلة بعد ان سمعتموها منى ؟

---

(١) باريس سنة ١٨٩٤ — ص ١ و ٢ من المقدمة .